﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ [الأحزاب: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من آثارِ الالتزامِ بالميثاق تحقيقُ نـصـرِ الـلـه للمؤمنين

لَمّا أكَّدَ سبحانه وجوبَ الصَّدْعِ بكلِّ أمرِه، وإن عَظُمَتْ مشقَّتُه؛ أوجزَ كلَّ ذلك في أخذ الميثاق؛ إذ هو متضمِّنٌ كلَّ الأوامرِ والنَّواهي، فذكَّرَهم بدليلٍ شُهوديٍّ هو أعْظمُ وقائِعهم في حروبِهم، وأشدُّ ما دهمَتْهم من كُروب، فقال معلِّمًا بأنَّ المقصودَ بالذّاتِ ما مضَى مِنَ الأوامرِ للأُمَّة، وإنَّما وجَّه الأمرَ إلى الإمام؛ ليكونَ أدْعَى لهم إلى الامتثال، فإنَّ الأمرَ للنَّبيِّ ﷺ تكوينيٌّ بمنزلةِ ما يقولُ اللّهُ تعالى له: (كُنْ)، فحقيقةُ الإرادةِ لا الأمر، والأمرُ للَّذين آمنوا تكليفيٌّ، وقد يُرادُ منهم ما يُؤمرون به، وقد لا يُراد، وللنّاسِ احتجاجيٌّ، أي: تُقامُ به عليهمُ الحُجَّة، ومن المحقَّقِ أنَّ بعضَهم يُراد منه خلافُ المأمورِ به، فقال تعالى بيانًا شافيًا كافيًا لما تقدَّم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُنُودٞ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّع والنُّصرة[2]، والجُندُ: الأرضُ الغليظةُ الَّتي فيها حجارة، ويقالُ للعسكرِ: الجُندُ اعْتبارًا بالغِلظة، ثمَّ يقالُ لكلِّ مجتمع: جُندٌ، نحو قوله ﷺ: (الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ)[3]، وجمعُ الجُند: أجنادٌ وجُنود، ويُطلَقُ الجندُ على الأعوانِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295 - 296.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).
(3) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 6/ 263، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2638).

والأنصار[1]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فالجنودُ الأولى من الكفّار، وهم جنودُ الأحزابِ، والجنودُ الثّانيةُ الّتي لم يرَوها: الملائكة[2].

2) ﴿رِيحًا﴾: (روح) أصلٌ كبيرٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على سَعَةٍ وفُسْحةٍ واطِّراد، وأصلُ ذلك كلِّه الرّيحُ، وأصلُ الياء في الرّيح الواوُ، وإنَّما قُلِبتْ ياءً لكسر ما قبلَها، والرّيحُ: الهواءُ المتحرِّك، وقد يُستعارُ الرّيحُ للغَلَبةِ والقوّة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46][3]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ هي ريحُ: الصَّبا، أكفأتْ قدورَهم، ونزعَتْ فساطيطَهم حتَّى أظعنَتْهم من مكانِهم[4].

3) ﴿بَصِيرًا﴾: (بصر) أصلان صحيحان: أحدُهما - وهو ما يعنينا هنا - العلمُ بالشَّيء، يُقال: هو بصيرٌ به، ومن هذه البصيرةُ، والبَصيرةُ: البُرهان، وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشَّيء، يُقال: بَصُرْتُ بالشَّيء: إذا صِرْتَ به بصيرًا عالِمًا، وأبصرتُه: إذا رأيتَه، وأمّا الأصلُ الآخَرُ؛ فَبُصْرُ الشَّيءِ: غِلظُه، ويُقالُ لقوَّةِ القلبِ المُدركة: بصيرةٌ، وجمعُ البَصَرِ: أبصارٌ، وجمعُ البصيرةِ: بصائرُ[5]، ويمكن أن يقال: البصرُ عِلْمٌ مبنيٌّ على رؤية شيءٍ واضحٍ، كالشيءِ الثَّخين الغليظ، والحجارة الرخوة[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بِنِعَمِ اللهِ مقصدٌ من مقاصِدِ الشَّرائعِ

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن نعمتِه وفضلِه وإحسانِه إلى عبادِه المؤمنين في صَرْفِه أعداءهم وهَزْمِه إيّاهم يومَ تألَّبوا عليهم، وتحزَّبوا يومَ

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جند).
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 515، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (روح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 1291، والنَّحّاس، معاني القرآن: 5/ 328، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 217.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (بصر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بصر).

الخندق، وذلك في شوّال سنة خمسٍ من الهجرةِ على الصَّحيح المشهور، ثمَّ أرسلَ اللّٰهُ ﷻ على الأحزابِ ريحًا شديدةَ الهُبوب قويَّةً حتَّى لم يبقَ لهم خَيْمةٌ ولا شيءٌ، ولا توقدُ لهم نارٌ، ولا يقرُّ لهم قَرار، وأنزل عليهم ملائكةً زَلْزلَتْهم، وألقتَ في قلوبهمُ الرُّعبَ والخَوْف، فارْتحلوا خائبينَ خاسرين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ نداءِ القريب بـ(يا):

حرفُ (يا) لنداء البعيدِ، والمؤمنون قريبونَ مِنَ اللّٰهِ بإيمانِهم به ومصابرتِهم على الجهادِ في سبيلِه[2]، وإنَّما نُزِّلوا في النِّداء منزلةَ البعيدِ؛ للدِّلالة على أنَّ ما بعد النِّداء أمرٌ يحتاج إلى شدَّةِ وعيٍ وتدبُّر، وتذكُّر وتذكير.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أيّ):

(أيُّ) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: لفظٌ مبهمٌ، لاستثارة السّامعِ، وجذب انتباهِه، بما يزيل الإبهامَ ويجلي البيان بعده.

بلاغةُ التعبير بـ(الهاء) في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

(الهاءُ) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ للتَّنبيهِ، أي: تنبيهِ المخاطَبين بأهمّيَّةِ ما وراءَ النِّداءِ من أمرٍ جَلَل، فهو إمّا أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن مُنكَرٍ، أو تذكيرٌ بنعمةٍ مِن نِعَمِ اللّٰهِ على عبادِه، كما هنا في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

تنبيهُ المؤمنين لتذكُّرِ نعمةِ اللهِ عليهم في نصرِهم وهزيمةِ أعدائهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الاسمُ الموصولُ من صيغ العموم، وهو مِنَ الألفاظِ المبهمةِ الَّتي تحتاجُ إلى بيانِه وبيانِ صلتِه، فكأنَّ المعنى: يا كُلَّ أهلِ الإيمانِ مَن قوي إيمانُهُ أو ضعف، مَن هو حديثُ عهدٍ بالإيمان أو مَن رسخت

إفـادةُ عمـوم المنـادى الموضَّح بالصِّلة في تذكُّر نعمةِ الله

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 439.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

قدمُهُ فيه، مَن خالط إيمانَهُ شكٌّ ومَن هو من أهل اليقين، اذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم.

سرُّ إيثارِ الإيمان في صلة الموصول:

تهييجُ المخاطَبين بوصفِ الإيمان لتحقُّق الثَّمرة المرجوَّةِ ممّا بعدَ النِّداء

جاءت صلةُ الموصولِ بلفظ الإيمان ﴿ءَامَنُواْ﴾، دون الإسلام أو التَّقوى أو اليقين أو غير ذلك؛ لبيانِ أنَّ أهلَ الإيمانِ هم المُرادُ منهم تذكُّرُ نعمةِ اللّه عليهم؛ إذ لولا إيمانُهم وجهادُهم لما استحقّوا نصْرَ اللّه لهم، ولطفه بهم، وتخليدَ ذِكرِهم وكرامتهم في كتابه المعجزِ، وليخرج بذلك المنافقونَ الَّذين أسلموا، ولم يؤمِنوا، والكافرون المُعْلنونَ للكفرِ، فإنَّ كُلًّا منهما ليس محلًّا لشرف نداءِ الخالقِ سبحانه، ولا خطابِهِ لهم بذلكَ، وليسوا كذلكَ أهلًا لتذكُّر النِّعم، وليكونَ وصفُ الإيمان دافعًا لهم، ومهيِّجًا لتذكُّر تلك النِّعم، وكأنَّه قال لهم: يا مَن ادَّعيتم الإيمانَ؛ حقِّقوا ذلك واقعًا بتذكُّر نعمِهِ عليكم، حتى يعينَكم ذلك على شكرِ نِعمِهِ.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

النِّعَمُ العظيمةُ ينبغي أنْ يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النُّفوسَ لتذكُّرها وشكرها

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالنِّداءِ، واستُعمِلَتْ فيه (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ بعدها بـ(أي) المبهمةِ الشَّديدة الإبهام؛ لتشدَّ انتباهَ المنادى، ثم جيء معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ ليزدادَ بذلك جذبُ المنادى بتعيينِهِ، وبالاسم الموصول المبهم ليزدادَ الشَّوقُ لمعرفةِ مَن هو المنادى، وبيانُ كلِّ هذا الإبهام أنَّ المنادى هم أهلُ الإيمان؛ إشارةً إلى شدَّةِ الاهتمام بمُناداةِ المؤمنينَ، ولَفْتِ انتباههم للنِّعمة الَّتي أُمِروا أن يتذكَّروها؛ فإنَّها نعمةٌ جليلةٌ، وشأنُ النِّعم العظيمةِ الَّتي تَهولُ المخاطَبَ أن يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النُّفوسَ؛ لتذكُّرها والانتفاع لذلك في شكرِها.

نكتةُ مجيءِ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا:

جاءتْ صلةُ الموصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيانِ تحقُّق الإيمان عند مَن أقرّوا به، وعبَّر به؛ ليعمَّ المنافقين، وإن كانوا في حقيقتِهم كافرين[1]، وقد تحقَّقَ الإيمانُ في قلوبِهم، وتحقَّقوا بالإيمانِ، واصْطَبغوا به.

تحقُّقُ الإيمانِ في قلوبِ المؤمنينَ واصْطباغِهم به

بلاغةُ تعدُّدِ المؤكِّداتِ والمنبِّهاتِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تعدَّدتِ المؤكِّداتُ في أسلوبِ النِّداءِ بأداتِه وتنبيهِه، واسْمِ الموصولِ وصلتِه؛ لقصدِ أنَّ ما يُؤمَرُ به المؤمنونَ مِن وجوبِ ذِكرِ نعمةِ اللَّهِ عليهم في نصْرِهم على أعدائِهم دون قتالٍ إنَّما هو لِما تحقَّقوا به مِنَ الإيمان، وإذا كان ذلك كذلك؛ فلا بدَّ لهم مِن ذكرِ مِنَّةِ اللَّهِ عليهم بنصرٍ لا تبعةَ عليهم فيه مِن تقديمِ تضحياتٍ من قتلٍ أو أسْرٍ، وإنْ كان في إيرادِ صفةِ الإيمانِ إقامةُ الحُجَّةِ على مَنْ آمنوا بألسنتِهم، ولم يؤمنوا بقلوبِهم، وهمُ المنافقون الَّذين كانوا يتآمرونَ مع اليهودِ والكافرين[2].

المؤمنونَ أهلٌ للتَّذكيرِ بنعمةِ اللهِ بنصرِهم

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ دون غيرِه:

لفظُ الذِّكْر شاملٌ لذِكْر اللِّسان والقلب، ولذِكْر السِّرِّ والعلن، ولذكر الحاضرِ والغائب، والإنسانُ مجبولٌ على ذِكرِ ما يحبُّ حبًّا لازمًا جبليًّا كذكر الآباء، أو حبًّا عارضًا منتقلًا كذكر النِّعم الخاصَّة، وكلُّ ذلك دليلٌ على شدَّة تعلُّقِه بما يذكرهُ وحبِّه له؛ إذِ الإنسانُ لا يحبُّ أن يذكرَ، أو يتذكَّر مواطنَ الألم والشدَّة، إلّا لسبب آخرَ ككيفيَّة النَّجاة منها، ومِن ألمها وشدَّتها، فالأمرُ بالذِّكر دافعٌ إلى الشُّكر ومانع مِنَ النِّسيان الذي يُعين على الجحود والكفران، فمِن فوائدِ ذِكره للنِّعمة: استحضارُها أمامَ عينيهِ وبين يديهِ، وإن طالَ العهدُ بها.

حضورُ النِّعمةِ بين يدي الذّاكر وأمام عينهِ مع بُعد العهدِ بها

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ﴾:

الأمرُ ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ﴾ ترغيبٌ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.

في الشُّكر بذكر الإحسانِ الَّذي أَسْداهُ اللّهُ إلى المؤمنينَ في هزيمةِ أعدائهم يومَ الخندق ونصرهم عليهم دون قتالٍ[1].

نكتةُ إفرادِ النِّعمةِ:

جاء في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ إفرادُ النِّعمةِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذّات، وهي نعمةُ تأييدِ اللّهِ للمؤمنين وهزيمةِ أعدائِهم، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

نكتةُ إضافة النِّعمة إلى المعرفة:

النِّعمُ العظيمةُ تحوي نعمًا كثيرةً

النَّكرةُ المفردة إذا أُضيفت إلى معرفةٍ؛ أفادَت العمومَ، فكأنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: (اذكروا نِعَمَ اللّه الكثيرةَ العظيمةَ التي حلَّت بكم، ونزلَت عليكم، وتجلَّت آثارُها على الأمَّة من بعدكم مِن خلالِ ما حدث في هذه الغزوةِ)، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الذّاكرَ في كلِّ نعمةٍ والمتأمِّل فيها، والمتدبِّر لها، يدركُ بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّها تحوي نعمًا كثيرةً عظيمةً، كلُّ جزءٍ منها يستحقُّ الذِّكرَ.

سرُّ إضافةِ النِّعمة إلى لفظ الجلالة:

أُضيفتِ النِّعمةُ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المرادَ إنعامُ الملكِ الأعلَى الَّذي لا كُفُؤَ له، ولا أحَدَ سواه، وهو اللّهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاء في: ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تمكُّنُ نعمةِ الله وإحاطتُها بعبادِه المسلمين

في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بعد ذِكْرِ النِّعمة وإسنادِها إلى اللّهِ المُنعِم بها؛ للدَّلالة على أنَّ تلك النِّعمةَ كائنةٌ عليكم، أي: نزلت عليكم بإحسانٍ مِنَ اللّهِ الأعلى، فالرِّيحُ الَّتي أيَّدكم اللّهُ بها - فاقتلعَتْ خيامَ المتحزِّبين عليكم، وأكفَأتْ قدورَهم، واختلَّ أمرهم - جاءتْكُم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.

من فوقِكم، والملائكةُ الَّتي كبَّرتْ في جوانبِ عَسكرِهم، فقذفَتِ الرُّعبَ في قلوبِهم، وقد جاءت مِنَ الأعلى، فأنتُم بهذا لا حولَ لكم ولا قوَّة، إنَّما هو تأييدُ اللهِ لكم بهذه النِّعمةِ الَّتي نزلَتْ عليكم من عَلٍ، فأصابت أعداءَكم وهزمَتْهم بقدرةِ اللهِ الأعلى[1].

المؤمنُ في معيَّةِ اللهِ دومًا

كما أنَّ الاستعلاءَ بـ(على) يفيد علوًّا معنويًّا بعد إفادةِ العلوِّ الحسّيِّ، أي: (اذكروا نعمةَ اللهِ العليَّةَ المنزلة السامقةَ القدرِ البعيدةَ عن قدرةِ البشرِ)، ثم إنَّ حرفَ الاستعلاءِ (على) بما فيه مِن معنى الإحاطةِ، يُشعرُ بإحاطة النِّعمةِ بهم مِن كلِّ جانبٍ، فقد شملتْهُم هذه النِّعمة من كلِّ جهةٍ، وحفَّتهم من كلِّ جانبٍ، حتى لا يأتيَهم العدوُّ في تلك الغزوةِ مِن أيِّ مكانٍ وفي أيِّ وقتٍ.

نكتةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:

جنودُ اللهِ نعمةٌ على المؤمنين، وبلاءٌ على الكافرين

على كون ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ منصوبةً بـ﴿ٱذْكُرُواْ﴾، فهي بدلُ اشتمالٍ من ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والبدلُ والمبدلُ منه واحدٌ في المعنى، وكأنَّ التَّقدير: (اذكروا إذ جاءتْكُم جنودٌ، فأرسلْنا عليهم ريحًا)، وعلى هذا تتَّحد الجملتان في المعنى، فلا يحتاجُ الكلامُ إلى فصلٍ بواو العطف ولا بغيرها؛ لأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، والكلامُ مُتَّحدٌ لا مُتغايرٌ.

وعلى أنَّ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ جوابٌ لسؤال مُقدَّرٍ استدعاهُ الكلام السابق (اذكروا نعمة اللهِ عليكم)، تقديره: ما هي هذه النِّعمةُ يا رب؟ فكان الجواب: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، والاستئنافُ البيانيُّ لابدَّ فيه مِن الفصل[2].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 438.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 403.

سرُّ التعبير بـ﴿إِذْ﴾ في ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ النِّعمةِ واستحضارها بماضيها

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لما مضى مِنَ الزَّمان، وتأكَّد مضيُّه بمجيء الفعلِ الماضي بعدَهُ، وهذا هو الأصلُ فيها، وقد يأتي بعدَها الفعلُ مضارعًا، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التّوبة: 40]، وإنَّما جاءت على الأصلِ بفِعلِها الماضي لتحقُّق وجود النِّعمة؛ إذ الفعلُ الذي مضى، وانقضى، لا يُشَكُّ في وقوعِهِ ولا وجودِهِ، فكأنَّه لمّا أمرهم بذِكْر النِّعمة؛ بيَّن لهم أنَّهم لا يذكرون أمرًا مشكوكًا فيه، كما يحدث عند البعضِ إنَّما يذكرون نعمةً واقعةً متيقَّنةً، أدركَها الذين نزلَ القرآنُ فيهم، وشهدوها، وعاينوها، وصدَّقها مَن جاء بعدَهم بيقين؛ لأنَّها كلامُ اللّه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النّساء: 122].

سرُّ التَّعبيرِ بالمجيء بدل الإتيان:

المجيءُ يدلُّ على الشدَّة والقوَّة والصُّعوبة

الإتيانُ فيه سهولةٌ ويسرٌ، والمجيءُ فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ، ولا يكون إلّا في الأمور الشديدةِ حسًّا أو معنًى، كالافتراء على اللّهِ ﷻ، أو الإتيانِ بأمر لا يُصدَّق عقلًا، وبالتفحُّص في القرآن نجدُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ [مريم: 27]، فإتيانُها به لهم فيه سهولةٌ، لكن إنكارهم لها جاء بالتَّعبير بـ﴿جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾ [مريم: 27]، فالأمرُ كان عسيرًا عليهم، صعبًا على قلوبهم وعقولهم.

نكتةُ تأنيثِ الضَّمير في ﴿جَآءَتْكُمْ﴾:

اجتماعُ القبائلِ على غَزْوِ المدينة مع ضعفِهم في الجهاد لكفرهم

قولُه تعالى: ﴿جَآءَتْكُمْ﴾ فعلٌ ماضٍ فصلَ بينه وبين فاعلِهِ فاصلٌ، فجاز فيه التَّذكيرُ والتَّأنيث، لكنَّ القرآنَ آثر فيه التأنيثَ، فاتَّصلَتْ به تاءُ التَّأنيثِ السّاكنة لأمور؛ منها الدِّلالة على تنوُّع الجنود، وأنَّها وإن اجتمعَتْ في الهدف، فإنَّها ليست على قلبِ رجل واحدٍ، وهذا واضحٌ من تنوُّع تلك القبائلِ الَّتي اجْتَمَعَتْ مُتساندةً لغزوِ المسلمين في المدينة[1]، ومِن دواعي إيثارِ التَّأنيث أيضًا في الفعل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

﴿جَآءَتۡكُمۡ﴾ ضعفُ تلك الجنودِ، وإن كان الظاهرُ عليها القوَّةَ والشدَّةَ والمنعةَ، فإنَّها في الحقيقة ضعيفةٌ، لضعف المعتقدِ الدّافعِ لها على القتالِ، والعربُ تستعمل التَّذكير في معنى القوَّة، والتَّأنيثَ في معنى الضَّعف.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ الجنود:

خـروجُ جميعِ جنودِ القبائلِ متساندةً لغَزْوِ المسلمين

الجنودُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ جمعُ: جُنْدٍ، وهو الجمعُ المتَّحِدُ المتناصرُ، ولذلك غَلبَ على الجمعِ المجتَمِعِ لأجلِ القتال، فشاعَ الجندُ بمعنَى الجيشِ، وذكرَ ﴿جُنُودٞ﴾ هنا بلفظِ الجمعِ؛ لأنَّ مفردَه مُؤذِنٌ بالجماعة، مثل قوله تعالى: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ [ص: 11]، فجمعَهُ هنا؛ لأنَّهم كانوا متجمِّعين مِن عدَّةِ قبائلَ، لكلِّ قبيلةٍ جيشٌ خَرجوا مُتساندينَ لغَزْوِ المسلمين في المدينة، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ [البقرة: 249][1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿جُنُودٞ﴾:

كثرةُ أعدادِ جنودِ الأحزاب وحقارةُ شأنِهم عند اللهِ تعالى

جاءَ لفظُ ﴿جُنُودٞ﴾ نكرةً؛ لأنَّه يُعبِّرُ عن كثرةِ أعدادِ جنودِ القبائل الَّتي تحزَّبتْ على المسلمين، فقريشٌ قد أقبلتْ في عشرةِ آلافٍ مِنَ الأحابيش وبني كنانةَ وأهلِ تهامةَ، وقائدُهم أبو سفيان، وخرجَتْ غطفانُ في ألفٍ ومَن تابعهم من أهلِ نجد، وقائدُهم عُيَيْنَةُ بنُ حِصن، وقبيلةُ هوازن وقائدُهم عامرُ بنُ الطُّفَيْل، وقبيلتا بني سُليم، وبني أسد، وانضمَّ إليهما يهودُ بني قُريظة[2].

ومع هذه الكَثْرة الكاثرةِ جاء أيضًا تنكيرُ ﴿جُنُودٞ﴾ في السّياق؛ تعبيرًا عنِ الاستهانةِ والازدراءِ لتلك الجنود، واحْتقارِ عددِهم وعُدَّتِهم وزَحْفِهمُ الفاجرِ وغَزوِهمُ الظّالم، ولا أدَلَّ على ذلك أنَّ اللّهَ كفَى المسلمين مؤونةَ القتالِ بريحٍ أرْبكتْ جيوشَهم، وملائكةٍ أرعبتهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 253، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 403.

بلاغةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾:

مجيءُ الأحزابِ سببٌ في إرسالِ الريحِ والملائكةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ تفيدُ التَّعقيبَ والسَّببيَّة، أي: لمّا كان مجيءُ الجنودِ مُرهبًا؛ سبَّبَ عنه أنَّنا أرسَلْنا - بما لنا من العظَمة - عليهم ريحًا، وهي ريحُ الصَّبا الباردة، وملائكةً قذفتِ الرُّعبَ في قلوبِهم، وكلُّ ذلك بأمرِ اللهِ وقدرته سبَّبَ هزيمتَهم وعودتَهم مقهورينَ مرعوبين[1].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم في ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾:

مقامُ إظهارِ النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ يحتاجُ إلى ضميرِ التَّكلُّم مِنَ المُنعِم

انتقلَ الكلامُ مِن ضمائر الغيبةِ في الآية السّابقة، إلى ضمير التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ المِنَّةِ الرَّبّانيَّةِ في بيانِ النِّعمةِ الَّتي أسْبلَها تعالى على المسلمينَ في ذلك اليوم العصيبِ من إرسالِ الرّيحِ والملائكةِ لمساندتِهم وتأييدِهم وهزيمةِ أعدائِهم من غيرِ قتال[2]، ناهيك عن كون ضميرِ التَّكلُّم قد جاء بأسلوب التَّعظيم.

نكتةُ إسنادِ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمة:

إظهارُ العظَمةِ الإلهيَّةِ في وقتِ الأزماتِ والشَّدائدِ

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الإرسالَ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ هَلَعٍ ورُعْبٍ شَديدٍ، فقد كان في تحزُّبِ بعضِ قبائلِ العربِ واليهودِ على المسلمين بأعدادِهمُ الكثيرةِ وعُدَدِهم الكبيرةِ مثارَ رَهْبةٍ وخوفٍ شديدٍ في قلوبِ المسلمين بحكمِ الطَّبيعةِ البشريَّة، فسبَّبَ عن ذلك كلِّه عَوْدُ البيانِ القرآنيِّ إلى مظهرِ العظمةِ الإلهيَّةِ والتَّأييدِ الرَّبّانيِّ، فقال ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، أي: (بعظمتِنا وقوَّتِنا وقَهْرِنا أرْسَلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تَرَوْها مِنَ الملائكة، فدبَّ فيهم الرُّعبُ، وزُلْزِلوا حتَّى عادوا خائبينَ ذليلين)[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 297 - 298.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 153.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 297.

نكتةُ تعديةِ الإرسالِ بـ (على):

تعدَّى الفعلُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بحرفِ (على)؛ للدَّلالةِ على استعلاءِ ذلك الإرسالِ على مَنْ كان محلَّهُ، وهمُ الأحزاب، فقد تلبَّسَ فيهم إرسالُ الرّيح والملائكةِ مُستعليًا عليهم محيطًا بهم، فَشُلَّتْ قدرتُهم، وعجزَتْ أعدادُهم وعُدَّتُهم عن مجابهةِ جنودِ اللّه فضلًا عن أن يغلبوها.

اسْتِعْلاءُ الإرسالِ على الأحزابِ، وتمكُّنُه منهم وإحاطته بهم

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تقدَّم الجارُّ ومجروره ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ والأصلُ أن يُقال: (فأرسَلْنا ريحًا عليهم)، وذلك لتخصيصِهم بهذا الإرسال، وقصره عليهم، أي: (أرسَلْنا بما لنا مِنَ العظمةِ على أولئك الأحزابِ دون غيرِهم ريحًا وملائكة)[1].

حصْرُ الإرسالِ على الأحزابِ وحَدْهُم واختصاصه بهم

نكتةُ تنكيرِ ﴿رِيحًا﴾:

جاءَ تنكيرُ ﴿رِيحًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ ماهيَّةِ هذه الرّيح، فهي ريحُ الصَّبا شديدةٌ باردةٌ أزالَتْ خيامَهم، وأكْفأتْ قُدورَهم، وأطفأتْ نيرانَهم، وسَفَّتِ التُّرابَ في عيونِهم، ومادت الخيلُ بعضُها في بعض، وهلكَ كثيرٌ منها، فاخْتلَّ أمرُهم، وهلكَ كُراعُهم وخُفُّهم، وأحْدَث ذلك كلُّه تخاذلٌ بينهم، فارتحَلوا عن المدينة، يجرّونَ وراءهمُ الذُّلَّ والخُسران[2]، وبالجملة فمِن شدَّة هذه الريح وعِظمها اختلَّ أمرُ الأحزاب، وانفضَّ جندهم.

تفخيمُ أمرِ هذه الريحِ وبيانِ شدَّتها

نكتةُ عطفِ الجنودِ على الرّيح:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجنودَ على الرّيحِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ للجَمعِ بين السَّببَيْن في هزيمةِ المشركين ومَنْ مَعهم مِنَ اليهودِ بأمرِ اللّهِ ﷻ: ريحُ الصَّبا الَّتي هي من جُندِ اللّه، يعذِّبُ بها مَن يشاءُ مِن أهلِ الكفرِ والطُّغيان، كما قال

اشتراكُ الملائكةِ مع الرّيحِ في رُعبِ المشركين وفضِّ جندهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 298.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.

تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: 31]، والملائكة التي تقذفُ الرُّعبَ في قلوب الكفار، وتفعلُ نحو فعلِ الريح[1].

بلاغةُ الإبهامِ والتَّصريح في الآية:

العقلُ البشريُّ يدركُ الرّيحَ، ولا يدركُ الملائكةَ

إنَّما صرَّحَ بالرّيح، ولم يقلْ: جندًا؛ لأنَّ النّاسَ ترى الرّيحَ تقتلُ، وتدمِّرُ، وهو مألوفٌ لدى الناسِ، يعيه عقلُهُم البشريُّ، ويستوعبُ آثارَهُ، لكنَّهم لم يروا الملائكةَ تقتل، ولذلك قال ﷻ في الملائكة: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾، أيْ: (لم تَروها، ولم تدركوها، ولم تعقلوها بعقولكم، ولم تتعوَّدوا على مِثلها)؛ لذا جاءتْ مُبْهمةً؛ عبَّر عنها بالتَّعبير العامِّ ﴿وَجُنُودًا﴾، ولا مانع من كونِ هذه الجنودِ الملائكةَ وغيرَ الملائكةِ، فكلُّ شيءٍ ينصرُ اللّه به عبادَهُ جندًا مستقلًّا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَجُنُودًا﴾ وجمعِها:

كثرةُ الملائكةِ وعظمُ خلقتهم، وعظيمُ فعلِها في إرجافِ المتحزِّبين

الجنودُ جمعُ: جُنْد، بمعنى الجماعةِ من صنفٍ واحدٍ، وجاءتْ نكرةً؛ لتدلَّ بهذا على كثرةِ أعدادِ الملائكةِ وعظم خِلقتهم وبأسِهم، فهُم أصنافٌ كثيرون، ولتدلَّ على المبالغةِ في بيانِ المهمَّةِ العظيمةِ الَّتي أُرسِلوا بها لنصرِ المؤمنين، وإلقاءِ الرُّعبِ والخوفِ في قلوبِ المشركين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالصِّفة في: ﴿لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾:

جملةُ ﴿لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ صفةٌ لـ ﴿وَجُنُودًا﴾، أي: جنودًا غيرَ مرئيَّةٍ[3]، ومن صفاتِ الملائكةِ أنَّهم جنودٌ للّهِ غيرُ مرئيَّةٍ، ودخولُ قتالٍ أو حربٍ مع عدوٍّ غير مرئيٍّ، أو مرئيٍّ على هيئةٍ غيرِ معتادة مما يبثُّ الرُّعبَ في صفوف الجنود.

فائدةُ وصفِ الجنودِ بأنَّها لا تُرى:

جاءَ وصفُ الجنود، وهم الملائكةُ في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 457.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.
(3) درويش، إعراب القرآن: 7/ 606.

تَرَوْهَا﴾؛ للدَّلالةِ على الرُّؤيةِ البصريَّة، وكونُ الملائكةِ لا تُرى، وهي تفعلُ هذا الفعلَ في معسكرِ المشركين والمتحزّبين ضدَّ المسلمين من بثِّ الرُّعبِ في قلوبِهم، وزلزلتِهم بالتَّكبير، واضْمحلالِ قيلهم وقالهم، فكان في ذلك رحيلُهم، كلُّ ذلك يكون أنْكَى بهم، وأزْجفَ لقلوبِهم وزلزلةِ أركانِهم، ممَّن يفعلُ ذلك كُلَّه، وهو لا يُرى، وإنَّما يُرى أثَرُ فعلِهِ وعظيمُ خَطَرِه[1].

عـــدمُ رؤيـــةِ الملائكة بالرُّغم من رؤيةِ عظيمِ فعلِها وخطير أثرِها

بلاغةُ المقابلةِ بين جنودِهم وجنودِ الله:

الحربُ في الحقيقة ليستْ كما نفهمُ نحن أنَّها بين المسلمين والكفّارِ، إنَّما الحربُ في الحقيقة بينَ اللهِ والكفّارِ، والَّذي يُؤكِّد ذلك آياتٌ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّهم لا يُعجزون اللّهَ في الأرض ولا في السَّماء، فلو أنَّ اللّه ﷻ أرادَ الانتقامَ مِنهم بنفسهِ لأهلكم.

الـــحـــربُ في الحـقـيـقـة بين الله والكفار

وهذه سُنَّةٌ مُضطَّردة في كلِّ الأمم السّابقة أنَّه يُنزِّل عذابًا يُهلك بهِ هذه الأممَ، ويستأصلُ شأفتَها مِن لدن آدمَ إلى زمنِ موسى ﷺ، ثم جعلَ هذهِ الخصوصيَّةَ مِن خصوصيّاتِ هذهِ الأمَّة بأن جعلَ اللّهُ له جنودًا ينتصرُ بهم على عدوِّهِ، وعلى هذا نفهمُ المقابلةَ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، لم يقلْ: (فقاتلتموها)، إنَّما قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فجنودُ اللّهِ مِنَ الرّيحِ والملائكةِ والنَّصرِ بالرُّعب وغير ذلك من الجنودِ الكثيرةِ الَّتي ذُكِرَت في القرآنِ، هي الجنود الَّتي ينتصرُ بها اللّه ﷻ على الكفّار في مقابلةِ جنودِهم.

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها حالٌ مِن لفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾[2]؛ للدِّلالة على أنَّ عِلمَ اللّهِ محيطٌ بمكرِ الكافرين، فيعلمُ ما يمكرونَ

عِلْمُ الله محيطٌ بمكر الكفّارِ وإعداد المؤمنين

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 298 - 299.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.

بهِ، وما يخطِّطون له، ويعملونَهُ في مواجهة المسلمين، ومحيطٌ كذلك بما يعدُّه المسلمونَ لهم، فينصرُ أولياءَهُ، ويخذلُ أعداءَهُ، بدعم أوليائِهِ بجندهِ لنصرتِهم، وإضعاف أعدائِهِ وخذلانهِم بجندهِ أيضًا.

نكتةُ دخولِ (كان) على الجملة:

تحقُّقُ علمِ اللهِ بأعمالِ المسلمين والكافرين في سائرِ الأزمان

(كان) يدلُّ على الزَّمنِ الماضي، ولكنَّهُ في حقِّ اللهِ يدلُّ على الدَّيمومة والاستمراريَّة، فاللهُ تعالى كان يعلمُ، وهو كذلك في الحاضرِ وفي المستقبل، بل لا يوجدُ في حقِّ اللهِ زمنٌ، كما هو الحالُ في حقِّ النّاس؛ لأنَّ اللهَ تعالى كان قبل الزَّمانِ، وهو خالقُ السَّلام، ولكنَّ ورودَ الفعلِ (كان) هنا بارْتباطِه بما وراءَهُ يدلُّ على التَّحقُّقِ الجازمِ الَّذي لا رَيْبَ فيه، أي: الحالُ أنَّ اللهَ تعالى عليمٌ تمامَ العلمِ بأحوالِ المسلمين، وبما يُكابدونَه من مشقَّةٍ اسْتعدادًا لردِّ عدوانِ المتحزِّبينَ ضدَّهم[1]، وهو عليمٌ كذلك بأحوال الكافرين وما يعملونه مِنَ التحرُّز والمحاربة وإغراء بعضِهم بعضًا.

نكتةُ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الصِّدقُ في الإيمانِ والأخْذُ بالأسباب سببانِ لنصرةِ الله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، أي: جعَلْنا ما أنتم عليه - أيُّها المسلمونَ - من مكابدةِ المشاقِّ في حفرِ الخندقِ وغيرِه مِن الصِّدقِ في الإيمانِ وغيرِه أنْ دبَّرْنا في هذه الحربِ ما جعلَكم تنتصرونَ دونَ قتالٍ، وجعَلْنا ذلك كذلك سببًا لإغنائِكم بأموالِ بني قُرَيْظةَ ونسائهم وأبنائهم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(ما) وموقعُ الجملةِ بعدَها:

(ما) اسْمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي) والجملةُ بعدها ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب، أي: وكانَ اللهُ بالَّذي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

تعملونه بصيرًا[1]، ويمكنُ أن تكونَ (ما) مصدريَّة، أي: وكان اللّهُ بعملِكم بصيرًا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

الفعلُ المضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يدلُّ على التَّجدُّدِ والاسْتمرار، أي: بما تعملونه من أعمالِ الإيمان، وبأخذِكم الأسبابَ المترتِّبة على الإيمان، وبما تستعدّونَ به لملاقاةِ عدوِّكم مِن حفرِ الخندق، والتَّضرُّعِ إلى اللّهِ لنُصرتِكم وهزيمةِ أعدائكم، فأنتم دائبونَ مستمرّون على ذلك، لا تتوانَون، ولا تُقصِّرون.

اسْتمرارُ المسلمينَ في اجْتهادِهم في أعمالِ الإيمان، والاسْتعدادِ لقتالِ الأعداء

بلاغةُ القراءاتِ المتواترة في ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان متواترتان[3]:

الأولى: قراءةُ أبي عمرو، فيقرأُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء الغَيبة، أي: بما يعملُهُ الكفّارُ من التَّحرُّزِ والمحاربة، وإغراءِ بعضِهم بعضًا عليها، حرصًا على إبطالِ حقِّكم، أو بما يعملونَه مِنَ الكفرِ والمعاصي.

اللهُ تعالى بصيرٌ بما يعملُهُ الخلق جميعًا

والثّانيةُ: قراءة بقيَّةِ القرّاء، فيقرَؤونَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطاب، أي: بما تعملونَ – أيُّها المسلمون – مِن حفرِ الخندق، وترتيبِ مبادئ الحربِ إعلاءً لكلمةِ اللّهِ تعالى، أو: بما تعملونَ مِنِ التجائكم إليه تعالى ورجائِكم مِن فضلِه ﷻ[4]، أو: بما تَعملونَ أيُّها المسلمونَ والكافرون[5]، أو أيُّها المخاطَبونَ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

حذْفُ مفعولِ الفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ مع الاخْتصارِ[6]،

الدّلالةُ على العمومِ في أفعالِ المسلمينَ والكافرينَ

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 606.
(2) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20.
(3) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 518، وابن الجزري، تحبير التَّيسير في القراءات العشر، ص: 510.
(4) مكّي ابن أبي طالب: 2/ 193، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 404.
(5) وهذا التَّوجيه رجَّحه مكّي، الكشف: 2/ 193، وقال: "فالجميع داخلون في المخاطبة فهو أبلغ، وهو الاختيار، لأنَّ الأكثر عليه".
(6) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 135، 137.

فحذْفُ المفعولِ هنا يفيدُ جميعَ ما يعملُهُ المسلمون مِن حفرِ الخندقِ والإعدادِ الإيمانيِّ، والإعدادِ الحربيِّ بالعَددِ والعَتاد، والاسْتنصارِ باللّهِ، والتَّوكُّلِ عليه، وجميع ما يتوفَّرُ ويتوافرُ عندهم من وسائلَ تُحقِّقُ لهم النَّصرَ بإذنِ اللّه، وكذلك فإنَّ في حذفِ المفعولِ تعظيمًا لشأنه[1]، فإنَّ ما يعملُهُ المسلمون ممّا سبقَ ذكرُهُ له شأنٌ عظيمٌ عندَ اللّهِ؛ لأنَّه كلَّهُ مِنَ الإعدادِ العمليِّ للجهادِ في سبيلِ اللّهِ ونُصرةِ دينِه تعالى.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

تخصيصُ أعمالِ المسلمين وأهميَّتُها، واتِّساع علمِ الله لسائر الأعمال

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرًا﴾، والأصلُ أن يؤخَّر؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ أعمالِهم الَّتي يقومون بها؛ إعدادًا لقتالِ أعدائهم كونها محلَّ إبصارِ اللّهِ لها، ولأهميَّتِها في جانبِ الجهادِ في سبيلِه، وعظيمِ شأنِها عند اللّهِ تعالى[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿بَصِيرًا﴾:

الوصولُ بالعلمِ إلى درجة اليقينِ المُفضي إلى نصرةِ المسلمين والانتقامِ مِن الكافرين

أقوى أنواعِ العلم من حيثُ الحواسُّ، هو العلم المبنيُّ على الإبصارِ والرُّؤيةِ، فليس بعد العينِ أيْنٌ، وما راءٍ كمَن سَمِعَ، ولذلك يكادُ يُجمعُ اللُّغويّون على أنَّ مادة (بصر) بالشَّيء، بمعنى: عَلِمَ بهِ عِلمًا مبنيًّا عن بصرٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة فعيل: ﴿بَصِيرًا﴾:

تمكُّنُ الصِّفةِ مِنَ الموصوف والمبالغةُ في متعلَّقِ صفةِ العِلمِ لله تعالى

صيغةُ فعيلٍ (بصير) يحتمل أن تكون صفةً مُشبَّهةً باسم الفاعلِ مِن الفعلِ (بَصُرَ) الدالِّ على لصوق الصِّفة بالموصوفِ، وعدم انفكاكِها عنه على أيَّة حالٍ، ويحتمل أن تكونَ صيغةَ مبالغةٍ على وزن (فعيل)[3]، والمبالغةُ لا تكونُ في ذات الصِّفة؛ لأنَّ صفاتِ اللّه في أعلى درجاتِ الكمالِ، لا تفاضُلَ فيها باعتبار ذواتِها، فالمبالغةُ

(1) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 137.
(2) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 107.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 41.

فيها باعتبارِ متعلِّقاتها، فوصْفُ (فعيل) هاهنا أعمُّ في المتعلِّق؛ لأنَّ البصرَ الَّذي يترتَّب عليه العلمُ واسعُ التَّعلُّقِ، لا يحتاجُ إلى سببٍ كالمغفرةِ مثلًا، فإنَّها تحتاجُ إلى ذنبٍ يُغفَرُ وإلى مُذنبٍ مخلوق يُغفر له، وهي ومتعلِّقاتها موجودةٌ قبل الخلقِ، ثم إنَّ في احتمال الصيغة للصِّفة المُشبَّهة والمبالغة زيادةً في اتِّساع المعنى.

موقعُ جملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾:

تـذييـلٌ جـارٍ مجرى المَثَل

موقعُ جملةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ في موقعِ الحالِ من اسمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وتذييلُ الآية بصفةِ ﴿بَصِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ نصرَهم على أعدائِهم؛ لأنَّه عليمٌ بما لقيَه المسلمونَ مِنَ المشقَّةِ والمصابرةِ في حفرِ الخندق، والخروجِ من ديارِهم إلى معسكرِهم خارجَ المدينةِ، وبَذْلهمُ النُّفوسَ في نصرِ دينِ اللهِ، فجازاهُم بالنَّصرِ المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحَجّ: 40][1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَصِيرًا﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾؛ للدَّلالة على بالغِ إبصارِه ﷻ وعِلمِهِ الواسع[2].

غرضُ المبالغةِ في ﴿بَصِيرًا﴾:

تدبيرُ اللهِ ما فيه عـزَّةُ المسلمين وهوانُ المشركين

المبالغةُ في إظهارِ صفةِ البصرِ للهِ تعالى في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللهَ ﷻ دبَّرَ في هذه الحربِ ما كان المسلمون به الأَعْلَيْنَ، والمشركونَ بِهِ الأَسْفلين الذَّليلين، ولم تنفع أهلَ الشِّرك قوَّتُهم شيئًا[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»